دراسة مترجمة

الفكر الاقتصاديّ في كومونة باريس[1]

• ف.يا. باليانسكي •

ترجمة وتعليق: عاطف علُبي

المقدّمات التاريخيّة

شكّلتْ كومونةُ باريس، وهي أحدُ أهمّ الأحداث في التاريخ العالميّ، حدّاً فاصلاً لعصر بكامله، واتّخذتْ معنى تاريخيّاً تخطّى الحدودَ الفرنسيّة. إذ لأوّل مرّةٍ في التاريخ تصبح السلطةُ الحقيقيّة، في ١٨/٣/١٨٧١، في أيدي جماهير العمّال. فاللجنة المركزيّة للحرس الوطنيّ قادت الإضرابات التي اندلعتْ بشكل فجائيّ، وانتصرت الثورةُ البروليتاريّة، وظهرتْ إلى الوجود دولةٌ من نوعٍ جديد، وأصبحتْ ديكتاتوريّةُ البروليتاريا واقعًا قائمًا. وبذلك سطّرتْ كومونةُ باريس صفحةً برّاقةً في تاريخ الثورة البروليتاريّة. ولذلك ليس مصادفةً أن تستدعي حقدَ البورجوازيّة وخُدّامِها الشديد. ويواصل المؤرّخون البورجوازيون الافتراءَ عليها، مركّزين على تهديدها الدائم للأغنياء والرقّ المأجور. وفي سنة ١٩٣٠ نشر الأستاذ في جامعة هارفرد إ. مازون افتراءً كاذبًا حول كومونة باريس ليبرهنَ أنها كانت مجرّد مصادفةٍ في تاريخ فرنسا ناجمةٍ عن الحرب الكارثيّة (حرب ١٨٧٠) ولم تكن لها أيّةُ صلة بالاشتراكيّة، وبعيدة كلّ البعد عن الثورة البروليتاريّة، وهي تحتلّ هذا المكان في «الميتولوجيا الاشتراكيّة.» وهكذا فإنّ الكومونة يرتعش منها مدّاحو البورجوازيّة الدائمون حتى بعد موتها، وتثير فيهم البغضاءَ والخوف.

الواقع أنّ أحداث الثورة البروليتاريّة في باريس كانت قد أُعدّت تاريخيّاً في تطوّراتٍ سابقة. فالانقلاب الصناعيّ، وسيطرةُ نظام الفبركة، أدّيا هناك، كما في انكلترا، إلى الإفلاس الجماعيّ لصغار الحِرَفيّين، وفي الوقت نفسه إلى اشتداد الاستثمار غير الاعتياديّ، وإلى فقرِ العمّال، بالترافق مع الأزمات الاقتصاديّة الدوريّة والبطالة. ولذلك، فعلى أثر ثورة ١٨٣٠ (التي أطاحت بالبوربون) أتت ثورةُ ١٨٤٨. وهنا ظهرت الطبقةُ العاملة الفرنسيّة على الساحة وقادت بنفسها الصراع السياسيّ، وفي معارك ١٨٤٨ تعمّدتْ بالنار. وهذا سيعاد إلى حدّ ما في أحداث كومونة باريس. صحيح أنّ ديكتاتوريّة ناپليون الثالث التي تلت، لمدة ٢٠ سنة، عوّقتْ مساهمات البروليتاريا الفرنسيّة، ولكنها لم تقتلْ إمكاناتها التفجيريّة؛ بل غدت فكرةُ الاشتراكيّة والثورة البروليتاريّة شعبيّةً أكثر وأكثر. فالأمميّة الأولى التي ظهرتْ إلى الوجود عام ١٨٦٤ حظيت بالعديد من المناصرين في فرنسا، إذ امتدّت الشرارة وتسارع حريقُها بالحرب الفرنسيّة ــ البروسيّة وسقوط ديكتاتوريّة ناپليون الثالث. وقد كتب لينين، محلّلاً الأسبابَ المباشرة لأحداث ١٨/٣/١٨٧١، قائلاً: «إنّ الحرب غير الموفّقة مع ألمانيا، زمنَ الحصار والبطالة في صفوف البروليتاريا والإفلاسات بين أطراف البورجوازيّة الصغيرة، جعلت الجماهيرَ المستاءة معاديةً للطبقات العليا والسلطة، التي أبدت عجزًا كليّاً؛ وكلّ ذلك أدّى إلى غليانٍ وفوضى في صفوف الطبقة العاملة التي لم تكن راضيةً عن وضعها وتعمل من أجل قيام نظام اجتماعيّ آخر. هذا بالإضافة إلى التركيب الرجعيّ للجمعيّة الوطنيّة، التي كانت خائفةً على مصير الجمهورية. وكلّ ذلك تضافر مع أمور أخرى، بحيث دفع بسكّان باريس إلى ثورة ١٨ آذار، لكونهم غير راضين عن وجود السلطة في يد الحرس

١ ــ هذا البحث مترجم عن كتاب بالروسيّة بعنوان: **تاريخ الفكر الاقتصاديّ (مجموعة محاضرات)** بإشراف وتحرير البروفسورين أي. د أدولستوف وف يا. باليانسكي

الوطنيّ ويريدونها أن تصبح في أيدي الطبقة العاملة والبورجوازيّة الصغيرة المتحالفة معها.»[1]

برنامج الكومونة الاقتصاديّ

طرحت الكومونة، بوضوح كليّ، وفي عدد من التصريحات، برنامجَها الاقتصاديّ. ففي ١٨ آذار ظهر الإعلانُ الرسميُّ الأول، وفي اليوم نفسه نُشرت في الجريدة الرسميّة المادّةُ التي سمّت ثورة ١٨ آذار «كومونة.» وفي ٣١ آذار نُشرتْ مهمّاتٌ أوسع حدّدتها الكومونةُ في مادّة «باريس وفرنسا.» أما البرنامج الحاليّ الذي توجّه إلى الشعب الفرنسيّ فقد نُشر في الجريدة الرسميّة في نيسان باسم «كومونة باريس.» وفي ١٨ آذار تشكّلتْ لجنةٌ لإعداد برنامج وثائق، لكنّ مشروعها تغيّر لأنه كان قد حصر مهامّ الكومونة في حلّ قضايا البلديّات.

هذا الحدث المهمّ في المعركة العقائديّة يَشْهد على أنّ معالجة الثورة في وصفها مجرّد انتفاضة بلديّة (كومونيّة) اصطدم بمعارضةٍ عارمة. ففي ٩ نيسان، ولأجل وضع برنامج، أُعلن عن تشكيل لجنة جديدة بمشاركة اليعاقبة (دلكلوز[2]، بيلوره) والپرودونيين (مالون[3]، تيير، فاليس) والبلانكيين (كورنيه). وقد لعب دورًا مهمّاً في إعدّاد هذا البرنامج بييردني، الصحافيُّ ذو الميول البرودونيّة؛ لكنّ إعداد البرنامج وتحريره تمّا في الأساس على يد دلكلوز. وفي نهاية نيسان أُعدّ برنامجٌ توصية إلى «السكّان الزراعيين،» غير أنّه بقي غير معروف.

هذه البرامج المعلنة لكومونة باريس... دفعتْ بالتغيير الديمقراطيّ للنظام السياسيّ إلى الصفّ الأماميّ. وفي هذا السياق جرى الحديثُ عن حريّة الاجتماع والنشر والعمل، وعن تصفية الطبقة البيروقراطيّة والاحتفال بانتصار حريّة الانتخابات. مهامّ الثورة البروليتاريّة هذه انسجمتْ، إلى حدّ بعيد، مع شعار الانقلاب الديمقراطيّ العامّ، وغدت تصوّراتُ الكومونة في منتهى القوّة. لقد وُلدتْ دولةٌ جديدةٌ ذاتُ طابع بروليتاريّ، لكنّ ذلك لم تفهمه الكومونةُ نفسُها! وعلى برنامجها الرسميّ ظهرتْ تأثيراتُ مجموعاتٍ سياسيّةٍ غريبةٍ عن الاشتراكية؛ فاليعقوبيّ دلكلوز، الذي حرّر البرنامجَ، اكتفى بالجُمل ذات الطابع الديمقراطيّ العامّ. كما تمّ التعبيرُ عن الضرورات الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة بشكل في منتهى الضعف، ولم تُطرح مفصّلةً بشكل موجبٍ وملزم. أما الصراع مع الاستثمار فقد وُضع في مستوى عمليّة تصفية المضاربات والبيروقراطيّة ونشر الروح العسكريّة. واتّسم الوعدُ بجعل المُلْكيّة في متناول الجميع بعدم الوضوح، وأمكن أن يُفهم بامتياز وكأنه مفهومٌ للبورجوازيّة الصغيرة. وخُطّط «لازدهار العمل،» لكنّ الأساس الاقتصاديّ ـ الاجتماعيّ للدولة الديمقراطيّة الجديدة لم يحدَّد. أما في ما يتعلّق بحرمة المنزل، فقد تكرّرتْ جملُ الماضي القديمة. وخططُ تنشيط التجارة والصناعة كان يمكن أن يَقْبلها أيُّ بورجوازيّ كان! كما أنّ وثائقَ برنامج الكومونة لم تَطرحْ مسألةَ تصفية الرأسماليّة والصراع من أجل الاشتراكيّة. وتجاهلت الصفةَ البروليتاريّة لثورة ١٨ آذار، بالرغم من رفضها لكونها مجرّدَ انقلاب كوموني [بلديّ]. ولم تعالج المسألةَ الزراعيّة. وأُعيرت جملُ البرودونيين والباكونينيين الفوضويّةُ اهتمامًا كبيرًا...

لذلك بالإمكان التأكيدُ، بشكل عامّ، أنّ وثائق برامج كومونة باريس بقيتْ دون أحداثها، وقد عكستْ بمنتهى الضعف متطلّباتِ جماهير البروليتاريا، وبقيتْ في الأساس جُملاً ديمقراطيّةً ثوريّةً للبورجوازيّة الصغيرة. إنّ عدم نضجها الفكريّ واضحٌ للعيان، وشاهدٌ واضحٌ على ذلك هو ما تقدِّمُه المثاليّةُ المتّبعةُ تجاه ثورة سنوات ١٧٨٩-١٧٩٤ ودور البورجوازيّة فيها. بل إنّ واضعي البرنامج اعتبروا التناقضات الطبقيّة لسنة ١٨٤٨ غير معقولة.

السياسة الاقتصاديّة الاجتماعيّة

تعطينا السياسةُ الاقتصاديّةُ الاجتماعيّةُ للكومونة فكرةً أصحّ من برنامجها. وذلك يعود إلى أنّ التصريحات المتعلّقة بالبرنامج تعود إلى فترة ابتداء نشاط الكومونة، حين لم يكن قد حصل بعدُ أيُّ تحديدٍ ما بين تجمّعاتها الحزبيّة، ولذلك اهتمّ بإعداد تلك التصريحات آنذاك ديمقراطيّون من البورجوازيّة الصغيرة (اليعاقبة). فيما بعد، ومع اشتداد حدّة الصراع الطبقيّ، وتبلور القوى السياسيّة في نشاط الكومونة، ظهرتْ بشكل أقوى المطالبُ الاجتماعيّةُ للبروليتاريا الباريسيّة. غير أنه من الصحيح أيضًا أنه حصلتْ تنازلاتٌ اقتصاديّةٌ من قبل البورجوازيّة الصغيرة التي كانت حليفةً للكومونة. لكنّ سياسة الكومونة، بشكل عامّ، تخطّت أطرَ التصريحات الأولى لانتصار استقلاليّة الكومونة، وغدت راديكاليّةً.

فالكومونة سمحتْ بتدخّل كبير في الملكيّة البورجوازيّة، وأخذتْ بتنظيم ظروف العمل في المصانع الخاصّة، وبوضع مكوسٍ على الأسعار، وبفرض غراماتٍ على المحترفات تصل حدّ المصادرة. كما أنها أقامت المراقبةَ على العمل في المؤسّسات، ووضعتْ

---

١ ـ لينين، **المؤلفات الكاملة**، الجزء ١٧، ص ٧١١

٢ ـ صحافيّ ورجل سياسة فرنسيّ (١٨٠٩ ـ ١٨٧١). شارك في ثورتيْ ١٨٣٠ و١٨٤٨ ونُفي في ظلّ الإمبراطوريّة الثانية حتى العام ١٨٦٠ كان عضوًا في كومونة باريس، وهو ذو ميول يعقوبيّة. سقط على المتاريس في الأسبوع الدامي في ٢٥ أيار.

٣ ـ رجل سياسة فرنسيّ (١٨٤١ ـ ١٨٩٣). عامل صباغة عصاميّ. انتسب إلى الأمميّة الأولى، وأصبح عضوًا في الكومونة عام ١٨٧١ التجأ إلى سويسرا عقب الأسبوع الدامي (٢٢ ـ ١٨٧١/٥/٢٨). على أثر عودته إلى فرنسا بعد العفو العامّ (١٨٨٠) قام بإدارة مجلة **الاشتراكيّ** في كتابه **الاشتراكيّة الكاملة** (١٨٩١) عرض اشتراكيّة إنسانيّة كان لها بعضُ التأثير في جوريس

كومونة باريس: دولة ديكتاتورية البروليتاريا.

مبادئَ التنظيم الاشتراكيّ للإنتاج. وفي السياسة الاقتصاديّة للكومونة تجلّت الميولُ الاشتراكيّة، التي ازدادت قوةً مع تطوّر الأحداث. وهنا كان للاتجاه نحو «الجمهوريّة الاشتراكيّة» معنًى مقرَّر، وكذلك تجلّت الخصائصُ البروليتاريّة للدولة من نوع جديد. وعليه، فقد الحديثُ عن فضائل «استقلاليّة الكومونة» معناه السابق، وغدا واضحًا أنّ تحطيم البورجوازيّة الرجعيّة لا يمكن أن يتمّ إلاّ على مستوى فرنسا كلّها. وفي الصراع مع الڤرساليين [نسبة إلى ڤرسايل أي الملكيّة] حصل تمكينٌ لأسس كومونة باريس في وصفها دولةَ ديكتاتوريّة البروليتاريا.

في ما يأتي نشير إلى أهمّ التدابير التي عكست السياسةَ الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة للكومونة.

على أثر انتصار ثورة ١٨ آذار أعلنت اللجنة المركزيّة للحرس الوطنيّ إلغاءَ القرار المتعلّق ببيع أراضي البور في لومبارديا لقاء سندات، وسمحتْ بحقّ التقسيط الشهريّ لدفع المتوجّبات على شراء البضائع. كما منعتْ مالكي المباني من حرمان سكّان الشقق من إشغالها. وفي ٢٤ آذار أعلنت اللجنة قراراتٍ أكثر ملموسيّةً، أصبح بموجبها إيجارُ الشقق مرتبطًا بأحجامها. وحصل المستأجرُ الفقيرُ على تسهيلاتٍ مهمّة. كما تألّفتْ لجنةٌ للدراسة بغرض تحديد الضرر الذي يمكن أن يحصل للمالك، وما إذا كانت هناك ضرورةٌ لتعويضه. وتمّ تحريرُ مليون فرنك [على حساب خفض أجور الموظفين] لمساعدة الفقراء. ولستة أشهر عُلّق الدفعُ بالسندات التجاريّة والفوائد المتوجّبة على الرهون. ومن دون تعويض، سُمح باسترجاع سندات الأرض البور في لومبارديا إذا لم تتعدَّ قيمتُها ١٥ فرنكًا. ولتعويض الأضرار حصل تشريعٌ لجمع المبالغ اللازمة على حساب مَنْ هربوا من باريس أثناء الحصار.

فيما بعد، وسّعت الكومونةُ التشريعَ الاقتصاديّ ـ الاجتماعيّ. ففي ١٦ آذار أعلنتْ مصادرةَ المحترفات المتعسّرة وإعطاءها إلى «التجمّعات التعاونيّة» للعمّال، ووضعتْ مشروعَ إقامة مثل هذه التجمّعات. كما أنشأتْ محاكمَ «الطرف الثالث» لتحديد التعويضات للمالكين. وبُرّر هذا التعدي على البورجوازيّة بالاهتمام بمصالح العمّال. وفي ظلّ الكومونة أُنشئت لجنةُ العمل والتبادل بمشاركة مندوبين من أيّ نوع كان من التجمّعات العمّاليّة. ومع ذلك ففي نيسان أُتخذ قرارٌ قضى بإلغاء العمل الليليّ في الأفران، وتصفية حلقات البيع الوسيطة الليليّة السابقة. فاستعيض عنها بالأخذ بتسجيل عاملي الأفران العاطلين عن العمل في إطار كلّ محلّة.

في ٢٧ نيسان صدر قرارٌ بمنع الغرامات والحسومات الاعتباطيّة على الأجور في كلّ المؤسّسات العامّة والخاصّة، على اعتبار أنها تقنّع هبوطَ أجور العمل. وأُعلن حقُّ العمّال والموظّفين في أجر للعمل «بالحجم الكامل.» كما توسّعت المعركةُ مع البطالة؛ ففي كلّ تدبير ضُبط تسجيلُ الطلب والعرض للعمل. وفي ١٣ آذار اتّخذت الكومونةُ قرارًا بإعادة النظر في كلّ العقود العائدة إلى مقدّمي التسليمات الحربيّة، معطيًا

الأفضليّة إلى تسليمات تعاونيّات العمّال، ومضمِّنًا العقودَ المذكورةَ مادّةً تنصّ على الحدّ الأدنى لأجور العمّال. ولإدارة المحترفات التي جرت تصفيتُها (لتصليح السلاح) أُعدّ فريقٌ أعاد النظرَ في الإدارة المنتخَبة، وأنشأ مجلسًا بمشاركة ممثّلي العمّال. وهنا كان بإمكان ممثّلي العمال، عند الضرورة، الدعوةُ إلى جمعيّة عموميّة. ولوضع المكوس على أجور العمل، صدر مرسومٌ حدّد يومَ العمل بعشر ساعات.

وبهذه الطريقة فإنّ سياسة الكومونة العمّاليّةَ لم تبقَ محصورةً في أطر التغييرات الديمقراطيّة الاجتماعيّة، وعكست استقلاليّةُ الكومونة المتطلّبات البروليتاريّة بوضوح وتميّزتْ بالراديكاليّة. فلم تتوقّف الكومونة أمام التدخّل في الملكيّة البورجوازيّة، بل دافعتْ أيضًا عن المصالح الطبقيّة للبروليتاريا، وحدّت من التعسّف الاقتصاديّ. فقد أقامت، بقيادة التجمّعات العمّاليّة، نوعًا من نظام للإنتاج الاجتماعيّ. وهذه البدايات أو البراعم الاجتماعيّة تنسف، بشكل حازم، الأطروحةَ البورجوازيّةَ المزوّرة عن أنّ الكومونة لم تكن لها أيّةُ علاقةٍ بالاشتراكيّة.

كما عكست السياسة الماليّة للكومونة مصالحَ البروليتاريا. فقد أعير اهتمامًا كبيرًا التأمينُ المادّيُّ لأرامل عائلات الحرس الوطنيّ وأيتامها. وصُرِّفتْ مبالغُ كبيرة لتمويل البلديّات. وقُدّمت المنحُ إلى المنظّمات الاجتماعيّة. وحصلتْ خمسُ شركات لسكك الحديد على مليونيْ فرنك بمثابة ضريبةٍ خاصّةٍ لمصلحتها. وسُحبتْ مبالغُ محترمة (حوالى ١٥ مليون فرنك) من البنك الفرنسيّ [المركزيّ]. وقد كانت هناك أهميّة خاصّة لوضع حدّ أقصى لأجر عمل الأشخاص الداخلين في الملاك (١٥ فرنك في اليوم لأعضاء مجلس الكومونة و٥٠٠ فرنك في الشهر لبقيّة العاملين).

وفي ٢٩ نيسان صدر قرارٌ بتقسيط أجور شقق السكن. وكان قد صدر عن الكومونة في ٢٥ نيسان قرارٌ بمصادرة الشقق غير المسكونة. كما مُنع تصديرُ المنتجات الغذائيّة من باريس. وفُرضت الأسعارُ المقرّرة. ولصالح الكومونة اعتُرف بحقّ الأفضليّة في شراء المنتجات الغذائية بالأسعار المقرّرة؛ فقد تحدّد سعرُ كيلوغرام الجبز بـ ٥٠ سنتيمًا، بالاستناد إلى قانون ١٦-٢٤ آب ١٧٩٠. وبموجب مرسوم ٣ نيسان اعتُبرتْ أملاكُ المجالس الدينيّة أملاكًا وطنيّة. واتُّخذتْ تدابيرُ رمت إلى تخفيف وطأة الظروف الماديّة على البورجوازيّة الصغيرة نفسها. ويَشْهد على ذلك قرارُ الكومونة بتاريخ ١٦ نيسان، وهو قضى بتقسيط الكمبيالات المتوجّبة وسحوبات الاقتراض وغيرها لمدة ثلاث سنوات، علاوةً على عدم احتساب الفوائد وفي ٢٩ نيسان صدر قرار بمنع بيع سندات أراضي لومبرديا. وفي ٣ أيار سُمح، ومن دون تعويض، باستعادة السلع التي لا يتجاوز ثمنُها ٢٠ فرنكًا. كما طُرح موضوع تصفية صناديق الائتمان (الاقتراض).

وعلى تدابير الكومونة الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة انعكس بشكل قويّ واقعُ تشكّل لجنة العمل والتبادل، حيث انوجد أشخاصٌ على علاقة بماركس (سيرايه، فرنكل) ويتفقون على وضع «أسس الجمهوريّة الاجتماعيّة» لم يكن اليعاقبة والبلانكيون هم مَن قدّموا هذا الاقتراح، وقد أبدى نشاطًا كبيرًا هنا البرودونيون، الذين صدف أنْ عملوا أبعدَ من مشروع أستاذهم. لكنّ الصحيح هو أنّ الكومونة أبدت عدمَ حزمٍ وعملتْ قليلاً لمصادرة أملاك البورجوازيّة؛ فلم تتعرّض للبنك الفرنسيّ (المركزيّ) نفسه.

المسألة الأساسيّة العائدة إلى مصادرة ممتلكات البورجوازيّة لم تُطرحْ بشكل مبدئيّ. كما أنّ تصوّرات اليعاقبة والبلانكيين البورجوازيّة الصغيرة عوّقت مشاريع البرودونيين غير المعقولة في ما يتعلّق بإصلاح الائتمان وإعادة تنظيم التبادل، علمًا أنه لا بدّ لنا من الأخذ في الاعتبار أنّ الكومونة لم تعش سوى شهرين وبعض الشهر، وبالتالي لم تتمكّن من توسيع نشر نشاطها. وكما كتب أنجلز، فـ «إنّ التدابير التي اتُّخذتْ على الصعيد الاقتصاديّ تَشْهد، هي نفسُها، على الروحيّة الألمانيّة للاشتراكيّة العلميّة. فيما بعد، ومع تعمّق الثورة البروليتاريّة، غدت التصوّراتُ المزيّفة البورجوازيّة الصغيرة المختلفة المصادر أمرًا لا مفرّ منه، ولذلك كان لا بدّ من وضع المصادرةُ التامّةُ لأملاك البورجوازيّة على جدول الأعمال في البدء كان العمل متواضعًا، ولكنه مهمّ. فالثورة المضادّة للإقطاعيّة (١٧٨٩-١٧٩٤) لم تصل مباشرةً إلى ديكتاتوريّة اليعاقبة. إنّ دراما كومونة باريس تكمن في مقتلها المبكّر، على الرغم من كون الكومونة تطوّرتْ بشكل محدّد إلى جمهوريّةٍ بروليتاريّةٍ اشتراكيّة.»

المسألة الفلاحيّة

تجلّت الأحداثُ المشؤومةُ لكومونة باريس في عزلتها عن الفلاحين، الذين استعملتْهم البورجوازيّةُ المعاديةُ للثورة. فقد انتصب هنا «جدارٌ من الكذب» لم تتمكّنْ جماعةُ الكومونة من تحطيمه. فهي لم تتوجّهْ، وبشكل مباشر ورسميّ، إلى الفلاّحين، ولم تطرح المسألة الزراعيّة، ولم تقدّمْ برنامجًا المتعلّق بالمسائل التي تمسّ أهل الريف. وشكّل ذلك غلطة لا تُغتفر.

صحيح أنه طُرحتْ أحيانًا، في الجرائد، مشاريعُ لمساعدة الفلاحين من أجل استمالتهم إلى جانب الكومونة. ولذلك اقترحتْ جريدةُ **الكومونة** تصفيةَ المتوجّبات غير المفيدة، ومصادرةَ أملاك الكنيسة، وتحميلَ التعويضات البروسيّة مسبّبي الحرب، وخفضَ الضرائب، وتنظيمَ العمل والقروض بواسطة «التعاونيّات»؛ لكنّ البرودونيّ جورج دوشين طرح في الجريدة نفسها مسألةَ الأخذ بالضريبة على رأس المال لأجل تحسين وضع الفلاّحين. على أنّ كلّ تلك المشاريع البرودونيّة لم يؤخذْ بها. واقترحتْ جريدةُ البلانكيين **غورا** [الجبل] الضريبةَ على الأرض بضمانة ٦٠٠ مليون فرنك، وإصدار ٣ مليارات فرنك ورقيّ عملة، وأنه يمكن بواسطة أيّ نوع من العمليّات الماليّة (بمبلغ ١٩ مليار فرنك) تزويدُ العمّال والفلاحين بوسائل الإنتاج (٥٠٠ فرنك للشخص)

من الكومونة

أما الكومونة فأوصت بإصدار القسائم كي يتمكّن الفلاّحون من تحرير الرهون المتوجّبة ودفع الفوائد. من المفهوم أنّ مشاريع البلانكيين لم يكن لها معنى عمليّ: فقد تجاهلوا مسألة الأرض والصراع مع المُلاّك من الجيل الجديد، أما أوهام القروض النقديّة فلم تتمكّن من حلّ القضيّة.

طُرحتْ أوضحُ معالجةٍ للمسألة الفلاحيّة في مقالةٍ للكاتب الاشتراكيّ أندريه ليو. هذه المقالة، «فرنسا معنا،» ظهرتْ في جريدة **الكومونة** بتاريخ ٩-١٠ نيسان، وفيما بعد نُشرتْ بلاغًا رسميّاً يشرح للباريسين أنّ الخطر الأساس يأتي من المحافظات (الريف) وأنّ باريس هي على قاب قوسين أو أدنى من الموت «مضغوطةً إلى الأرض بجزمة الفلاح الثقيلة.» هذا في حين أنّ للباريسيّ والفلاح المصالحَ نفسَها، وتفريقها هو «الجنون» بحدّ ذاته؛ ذلك لأنّ جوهر الموضوع يتعلّق بالنزاع الكبير «بين الفقير وصاحب الامتيازات، بين العامل والطفيليّ، بين الشعب ومستثمريه.» ولذلك فلا بدّ من الأخذ في الاعتبار المصالح المادّيّة للفلاحين، والبرهان على أنّ باريس تعمل لتحرير الريف. فإذا كانت ثورة ١٧٨٩ - ١٧٩٤ قد جذبت الفلاّحَ بوعدها إيّاه القضاءَ على السخرة والفروض وتوزيع الأملاك الوطنيّة، فإنّ هذه الثورة الجديدة [الكومونة] يتوجّب أن تضيف إلى ذلك تحريرَ الأرض من «حقّ القيد الجديد.» وقد أكّدت المقالة أنّ سياسة إبقاء الفلاحين من دون اهتمام في حين أنّ الاشتراكيّة تهمّهم غيرُ صحيحة لكون باريس تريد «الأرضَ للفلاحين وتريد أدواتِ العمل للعمّال والعمل للجميع،» ولكونها تقوم لأجل ذلك بالحرب ضدّ المرابين والمحتالين والكسالى كي تصل ثمراتُ الأرض إلى مَن يعمل بها؛ فلا يكون هناك عملٌ بلا راحة، ولا راحةٌ بلا عمل، ولا يوجد من هم في منتهى الغنى ومن هم في منتهى الفقر. وبذلك يتحرّر العمّالُ من الضرائب القاسية وبراءات الاختراعات وغيرها، ويقع كلُّ ثقل الضرائب عندها على الأغنياء؛ كما تصبح التربيةُ مجّانيّةً، وتؤخذ متوجّباتُ الحرب من مسبّبي الحرب. كما وُعِدَ الفلاحون بتصفية كلّ مرتّبات البيروقراطيين، وتحميل مصاريف الباب الإمبراطوريّ والتحرّر من القمع وتنظيم الملاجئ للمسنّين. كما ركّز الكاتبُ اهتمامَه، وعن حقّ، على أنّ بإمكان عمّال باريس تقديمَ العون إلى الفلاّحين ..

المعركة العقائديّة ــ برنامج اليعاقبة[1]

جرى في داخل كومونة باريس صراعٌ حادّ بين التجمّعات السياسيّة العاكسة للمصالح الطبقيّة المتناقضة، فولّد نزاعاتٍ ذاتَ طابع عقائديّ، وقدّمتْ كلُّ مجموعة برنامجها

١ ـ بالإمكان هنا مراجعةُ برنامج اليعاقبة في ثورة ١٧٨٩ الفرنسيّة الكبرى في الدراسة المترجمة عن الروسيّة بعنوان «الفكر الاقتصاديّ في الثورة الفرنسيّة الكبرى» (ضمن كتابنا **المنهج المقارن مع دراسات تطبيقيّة**، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٦)

الاقتصاديّ. وهنا لعب اليعاقبةُ دورًا ملحوظًا ومهمّاً في تاريخ الكومونة. واليعاقبة ديمقراطيّون من البورجوازيّة الصغيرة، مقتنعون كلَّ الاقتناع بإمكانيّة الأخذ بالحريّة والمساواة والأخوّة ولو في ظروف الرأسماليّة نفسها. كما أنّهم غارقون في أحلام الجُمل ذاتِ الطابع الديمقراطيّ، فلم يفهموا طابعَ ثورة ١٨ آذار الثوريّ بل رأوا فيها مجرّد انتصار لـ «استقلاليّة الكومونة.» أصدروا عددًا من الجرائد: فبرئاسة تحرير دلكلوز ومساهمة جاكو، وبرمونا، وريشار، وغيرهم، صدرتْ جريدة **يقظة الشعب**؛ وأصدر فيليكس جريدة **المنتقم** بمشاركة أ. دلبمال، وروجر، وهنري بروسك، وأ. ماريه، وميلر، وفيوم، وب. دين. وكانَ لليعاقبة جريدة **الواقع**، حيث كانت تُنشر مقالاتُ ماريه، ولا دور، وفالت. وصدرتْ جريدة **المنبر الشعبيّ** بمساهمة ماريه، وماريوس، وليبيلت، وغيرهم. ومثّل اليعاقبةَ في مجلس الكومونة كلٌّ من ش. دلكلوز، ون. بيا، وغيرهما.

نسوق في ما يأتي نماذجَ من خطب اليعاقبة البليغة. ففي جريدة **المنتقم** كتب فيليكس بيا في ٣٠ آذار أنّ فرنسا الشعب ولدتْ فرنسا الحقيقيّة والواجب والعمل، وأنّه قد لاحت نهايةُ الطبقات المغلقة ونهايةُ الطبقيّة على اعتبار أنّ العمل غدا في النهاية قوةً والواجبَ حقيقةً ـ ومن المحال أن يُهزمَ الحقُّ والقوةُ معًا. ورأت هذه الجريدة معنى الثورة في مبدإ استقلاليّة الكومونة. وفي يوم آخر، وفي الجريدة نفسها، أعلن فيليكس بيا أنّ هدف الكومونة يتجلّى في الثورة، وأنّ وسائلها هي العمل، وأنّ هدفها باريسُ الحرّة وسط فرنسا الحرّة. وفي السادس من نيسان ورد في الجريدة ما يأتي: «في ظلّ استقلاليّة الكومونة، تستطيع الطبقاتُ الدنيا تحقيقَ المساواة الحقيقيّة في الحقوق والحريّة؛ وبفضل الكومونة يستطيع العمّالُ بواسطة المعارف الواسعة والسليمة تطويرَ عقولهم ومقدرتهم المهنيّة.» وفي ١٣ نيسان صدرتْ مقالة تتحدّث عن أنّ كلّ «ثورة تعبّر عن مبدإٍ ما جديد. فثورة ١٧٨٩ أعلنتْ حقّ الإنسان أو الفردانيّة، وثورة ١٨٣٠ أعلنتْ مبدأ الحريّة الدستوريّة، وثورة ١٨٤٨ أعلنتْ مبدأ استقلاليّة الكومونة.» وفي ٢٤ نيسان أكدّت الجريدة أنّ ثورة الكومونة هي في الواقع «ثورة اجتماعيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى لأنها أقرّت حقّ العمل.» وأبدت الجريدة الكثيرَ من الاهتمام بضمّ البورجوازية إلى أيّة تجمّعاتٍ كانت.

كلّ ذلك يشهد على أنّ اليعاقبة بقوا أسرى الجُمل الديمقراطيّة، وأنّهم بنوا أحلامَ الكومونة ولم يستطيعوا أن يفهموا بشكل عضويّ طابعَ ثورة ١٨ آذار البروليتاريّ؛ ففكرة الاشتراكيّة كانت غريبة عن هذا الفريق.

مشاريع البلانكيين

لعب البلانكيّون دورًا بارزًا في الأحداث البطوليّة لكومونة باريس. والبلانكيّون اشتراكيّون ثوريّون ذوو اتجاه رديكاليّ جداً، لم يفهموا مهمّات تكوين حزب بروليتاريّ، فتوجّهوا، استنادًا إلى التقاليد، نحو مبادرة «الأقلّيّة الثوريّة» و«الوسائل التآمريّة.» لكنهم كانوا أقلّ من اليعاقبة خيانةً لأحلامِ الكومونة، وأدركوا الطابعَ البروليتاريَّ لثورة ١٨ آذار. وهم أصدروا عددًا من الجرائد: **الجمهورية الجديدة، الإدارة الحرّة، الأب دوشين، صرخة الشعب**. وكانت جريدة غوستاف مارو، **الجبل**، قريبةً من مواقف البلانكيين. وغالبًا ما عولجتْ في مطبوعات البلانكيين طبيعةُ ثورة ١٨ آذار ومهمّاتها. وقد تمثّل البلانكيون في مجلس الكومونة بكلّ من: إ. فاليان، إ. دوفال،[1] إ. بروت،... وغيرهم.

كانت أحلامُ الكومونة وأحلامُ البورجوازية الصغيرة واضحةً في آراء البلانكيين. وفي ٢٧ آذار نُشر **مانيفست العشرين دائرة**...، وفيه جرى الحديثُ عن بعث تقاليد «كومونة العصور الوسطى والثورة الكبرى،» وأُعلنت الكومونة «بمثابة أساس أوّل لأيّ حدث سياسيّ» على اعتبار أنّ استقلاليّتها هي ضمانةُ كلّ مواطن وضمانةُ الحريّة ونظام المدينة أيضًا؛ أما اتحاد كلّ الكومونات فيؤدّي إلى القوة والغنى وأسواق التصريف والموارد لكلّ منها، وذلك بفضل التآزر والوحدة. وضع **المنيفست**، المطروحُ بالإرادة الحرّة للكومونات، شروطًا للقيام برصد أوضاع المدن والرساميل والمداخيل، وذلك «لامتصاص متوجّبات الفقراء وتنشيط القروض. فجرى الحديثُ عن وضع نظام التأمين الكوموني ضدّ جميع العوارض الاجتماعيّة (البطالة، الإفلاس) وتأمين القروض المنتجة، وأدوات العمل، والأسواق والقروض، وبذلك: الانتهاء كليّاً من العمل المأجور والفقر المريع.» فيما بعد، انتقلتْ هذه الجريدة من المناقشات حول تعاون الطبقات و«البورجوازيّة العاملة» إلى وضع المهمّات الاجتماعيّة للثورة. فكتب البلانكي ك. بوي في ٢ نيسان أنّ «الثورة الجديدة كان يتوجّب عليها أن تضيف إلى كلامها الشهير كلمة الاشتراكيّة.» ومجّدت الجريدةُ البلانكيّة، **الجمهوريّة الجديدة**، ثورة ١٨ آذار بوصفها ثورةً عالميّةً حصلتْ «بتأثير القوى المعنويّة.» وفي ٢١ آذار سمّتها هذه الجريدة «الثورة الكومونيّة،» داعيةً إلى تعاون الطبقات، بما فيهم التجّار والصناعيون، على اعتبار أنّ «العصر الآتي ليس عصر عدم النظام، بل يعني المساواة والسلم والتفاهم،» على الرغم من طرح مسألة دور الطبقة العاملة في الأعداد التالية. وفي رسالة شتابل جرى الحديث عن مجيء الطبقة العاملة إلى السلطة، والتي بإمكانها، أفضلَ من السادة المحامين، القيامُ بالقضايا

---

١ ـ قائد عسكريّ لكومونة باريس (١٨٤١ ـ ١٨٧١). عامل صبّ، وثائر بلانكيّ، وعضو الأمميّة الأولى. شارك في انتفاضات أكتوبر ١٨٧٠، وكان عضوًا في اللجنة المركزية للحرس الوطنيّ على رأس طابور من الكومونيين، حاول مهاجمة فرسايل، لكنه أُسِرَ وأعدِم

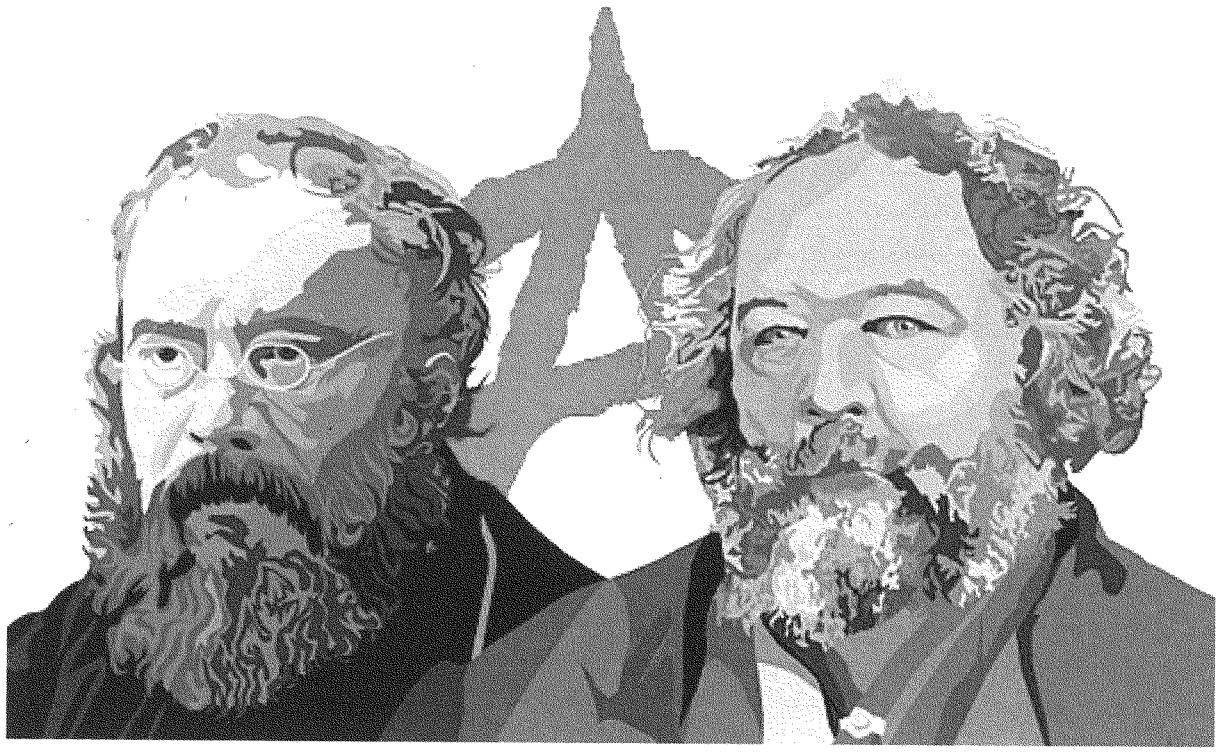

برودون وباكونين

الاجتماعيّة، لأنها متحرّرةٌ من حمل الماضي السياسيّ ومتعطّشة إلى التقدّم والسعادة... وفي ٢ نيسان كتبتْ جريدة **الإرادة الحرّة** أنه «يتوجّب، لطرح مهمّة الصراع ضدّ الاستثمار الرأسماليّ، تجسيدُ التحرّر الاجتماعيّ للطبقات الدنيا،» وأنّ «ساعة تجديد العالم القديم» قد أزفتْ، وأنّ يوم ١٨ آذار يعني أنّ «الطبقة العاملة، ولأوّل مرّة، دخلت الساحةَ السياسيّة.» وفي ٢٥ نيسان أعلنت الجريدة أنّ الكومونة بكاملها «تريد أن تكون ثوريّة واشتراكيّة.» أما جريدة **الأب دوشين** فبرهنتْ في ١١ أيار أنّ أحداث ١٨ آذار «ثورة اجتماعيّة» عولجتْ «كثورة العمل ضد الطفيليّة، وسلاح العمل ضدّ رأس المال، وحريّات التجارة والصناعة ضدّ الاحتكارات والبنوك.» وفي الأعداد التالية دُعي عمّالُ المدن إلى إنجاز ثورتهم والتأكيد على أنّ «سلطة الإقطاعيين قد قُضي عليها في ثورة ٨٩، وأنّ الرأسمالية سيُقضى عليها بثورة ٧١.

وبالإجمال، فإنّ البلانكيين، على غرار اليعاقبة، أشاعوا أحلامَ الكومونة، وفي مناسبات عديدة اكتفوا بالجُمل الديمقراطيّة المتوارثة عن العهد السابق، وغالبًا ما تحدّثوا باللغة البروليتاريّة، وعبّروا عن المطالب الاقتصاديّة للطبقة العاملة، وعالجوا ثورة ١٨ آذار في وصفها ثورةً اجتماعيّة، ووضعوا مشروعَ انتصار الاشتراكيّة، وطالبوا بالصراع الناشط ضدّ الاستثمار الرأسماليّ. ومع ذلك لم يتمكّنوا من الدفع ببرنامج ملموس للثورة الاجتماعيّة، ولم يتمكّنوا من تحديد مهامّها الاقتصاديّة. وفي ٢٨ آذار اكتفت جريدة **الأب دوشين** بوعد العمّال بتجديد عمل المحترفات، وإعادة تنظيم القروض، ووضع قانون جيّد لأجور الشقق الخ...

أوهام البرودونيين

ساهم البرودونيون بنشاطٍ في أعمال الكومونة، وشكّلوا في مجلس الكومونة قسمًا كبيرًا (أفريال، أرنوا، بليه،..). وقد انضمّ إليهم الباكونيون، الذين اصطدموا في الكثير من المسائل بتلامذة برودون.[1] وفي مجلس الكومونة كان للباكونيين أنصارُهم (آسي، فارلين، كلوزير، مالون). وكان لمجموعة البرودونيين ـ الباكونيين تأثيرٌ قويٌّ في السياسة الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة للكومونة، وكسبوا العديدَ من الأنصار في مختلف أنواع المنظّمات العمّاليّة. وقد أصدر البرودونيون عددًا من الجرائد: **الكومونة، صديق الشعب، الثورة السياسيّة والاجتماعيّة** (عضو قسم الأمميّة الأولى).

تتلخّص مأثرةُ البرودونيين في كونهم وضعوا أمام الكومونة المهامّ الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة، في حين اكتفى اليعاقبةُ

١ ـ اشتراكيّ فرنسيّ (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥). منبتُه الطبقة العاملة. أصبح على التوالي طبوغرافيّاً وطبّاعًا وصحافيّاً. «وضع يده بجرأة متحدّية على المقدّس الاقتصاديّ» (ماركس) وعلى حقّ الملكيّة، وأثار ردّات فعل عنيفة لدى البورجوازيّة. يُعتبر أبا الفوضويّة (ويدين باكونين إليه بالكثير) .

بالمسائل ذات الطابع السياسيّ، ولم يذهب البلانكيون أبعد من التصريحات العامّة. فقد وضع البرودنيون مقترحاتٍ ملموسة، عبّروا فيها عن كره الجماهير البروليتاريّة للرأسماليّة والتوق إلى الاشتراكيّة لكنّ برنامجهم الاقتصاديّ بدا معقّدًا ومرتبكًا، وأعاد إنتاجَ مشاريعَ لپرودون بسيطةٍ وفي منتهى الفقر حول إعادة تنظيم التبادل؛ مشاريع أشاعت أوهامَ البورجوازيّة الصغيرة، وعرضت الجُملَ الفوضويّةَ لمقولات الباكونيين. وتعطي فكرةً واضحةً عمّا ذكرنا المقالةُ المنشورةُ في جريدة **الكومونة** في ٤/٣ عنْ برنامج ميلر «ثورة ١٨٧١،» وفيها تتّضح كلّ الوضوح الأفكارُ البرودونيّة التي عكستْها جريدةُ **الاشتراكيّ**.

لذلك لا يجوز إنكارُ أنّ مجموعة البرودونيين ـ البلانكيين شكّلت الجناحَ اليساريّ في كومونة باريس، ودفعتْ بها على طريق الثورة الاجتماعيّة، وفضحتْ بشكل حازم الرقّ المأجور، وعبّرتْ بصراحةٍ تامّةٍ عن المطالب الاقتصاديّة للجماهير المقهورة، وحكمتْ بمنتهى البلاغة على «الإقطاعيّة الاقتصاديّة» و«الأنانيّة الاجتماعيّة،» وألقت الحرمَ على ديكتاتوريّة البورجوازيّة الأرستقراطيّة، وعبّرتْ عن خيبة الأمل في النتائج الاجتماعيّة المعلنة في ثورة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٤. لكنّ أحلام الكومونة تمكّنتْ أيضًا من البرودونيين: فلم يشكّلوا برنامجًا واضحًا للطبقة العاملة، ولم تساعد الجملُ الباكونينيّةُ حول «التصفية الاجتماعيّة» في شيء. والجمل المدوّية قنّعت الجوهرَ البورجوازيّ الصغير لأقوال المشاريع البرودونيّة ـ الباكونينيّة؛ فلقد افتُرض الانتصارُ على الرأسماليّة بمجرد استبدال قانون الإرث، ولم تُطرح المسائلُ العامّة لمصادرة أملاك البورجوازيّة، ولم يتقدّم شعارُ «ديكتاتوريّة البروليتاريا.» وكاشتراكيين بورجوازيين صغار، ورثةِ پرودون وباكونين، فإنّهم خلطوا الطبقةَ العاملةَ بفقراء المدن، ولم يتمكّنوا، بشكل عضويّ، من تحديد دورها التاريخيّ.

.

تأثير الأمميّة الأولى

كان للأمميّة الأولى تأثير كبير في إيديولوجيا كومونة باريس وسياستها، ولعب ماركس وأنجلز دورًا قياديّاً ملحوظًا. والعديد من البرودونيين كانوا أعضاء في قسم الأمميّة المتمركز في باريس، ويجتمعون بشكل دوريّ للتداول في المسائل الراهنة. وكما لاحظنا سابقًا فقد أصدر هذا القسم جريدةً خاصّةً به. ومباشرةً بعد انتخابات مجلس الكومونة، أذاع المجلسُ الفدراليُّ لقسم باريس من الأمميّة الأولى، وبالمشاركة مع الغرفة الفدراليّة للمنظّمات العماليّة، نداءً خاصّاً موجّهًا إلى العمّال، أدان الاستبدادَ المرائي، وركّز على أنْ ليست في قدرة المبدإ المشهور [مبدأ استقلاليّة الكومونة] إقامةُ النظام وتجديدُ العمل في المحترفات؛ كما أنّ رفضه متعذّر ولا معنى له. لذلك فصراع المصالح سيؤدّي إلى الخراب العامّ ويولّد الحربَ الاجتماعيّة [الأهليّة]. لذلك ففي مثل هذه الظروف «تجب العودةُ إلى الحرية والمساواة والتآزر، وأيضًا إقامة النظام على أسس جديدة، وإعادة تنظيم العمل. والشرط الأساس لذلك كلّه هو التفاهم.» وفي الكلام المعلن جرى الحديثُ عن الثورة الكومونيّة، وأعلن استقلالُ الكومونة ضمانةً للاتفاق، إذ تنصّ مادّةٌ فيه على «وقف التناحر الطبقيّ وتأمين المساواة الاجتماعيّة،» وطُرح شعارُ تحرير العمّال والأخذ بالإصلاحات الاجتماعيّة. ولوضع «الحجر الأساس في هذا النظام الاجتماعيّ الجديد،» يوصي الاتفاقُ بضرورة الوصول إلى تنظيم الائتمان والتبادل والتعاون بهدف تأمين قيمة العمل للعمّال كاملةً، وكذلك القيام بمعركة تنظيم التربية من كلّ جوانبها، والاعتراف الكامل بالحريّات الصحافيّة والشخصيّة وحريّة الاجتماع والتنظيم، وتأسيس الشرطة والقوى المسلّحة والإحصاء والمرافق الصحّيّة على الأسس البلديّة (الكومونيّة)...

هذا وفي مجرى اشتداد حدّة الصراع الطبقيّ حصلتْ إعادةُ نظر في أوساط البرودونيين، وتزايد تأثيرُ الأمميّة. ففي وجه البرودونيين اليمينيين (تيبس وغيره) انتصب جناحٌ يساريٌّ أخذ يعمل لتوسيع المشاريع الإصلاحيّة ذات الطابع الاقتصاديّ ـ الاجتماعيّ. وقد لعب دورًا كبيرًا في أوساط البرودونيين اليساريين المهاجرُ الهنغاريّ ليو فرنكل، الذي وقف على مقربةٍ من ماركس، فتحدّث في اجتماع المجلس الفدراليّ للقسم في ٢٤ آذار قائلاً: «واجبنا أن نرسي حقّ العمّال»؛ وفي اجتماع الكومونة في الأول من أيار أكّد الطابع الثوريّ الاشتراكيّ لآرائه؛ وفي ٢٨ نيسان دافع في اجتماع الكومونة عن منع العمل الليليّ عن عمّال الأفران .. وفي تقرير ١٣ أيار تحدّث عن مخاطر «تأبيد رقّ العمال عبر تركيز العمل في أيدي المستثمرين، على اعتبار أنّ هذا يعني السير وراء تقاليد العبيد التي تتّبعها الحكوماتُ البورجوازيّة...»

في هذه المحاكمات واضحٌ كلّ الوضوح انعكاسُ تأثير الماركسيّة. وقد تحرّر فرنكل مع الوقت من أوهام البرودونيين. هذا، وكان على مقربة من ماركس كومونيون آخرون. وماركس نفسه شارك بنشاط في قيادة الكومونة، بالرغم من وجوده في لندن؛ فلقد أرسل إلى باريس أشخاصًا موثوقًا بهم. كما أنه نصح بمقارعة الأعداء، ودان «معنويّات الكومونيين المرتفعة» وغيرها من الأخطاء وعدم رغبتهم في المبادرة بالحرب الأهليّة، وطالبهم بسرعة بمهاجمة فرسايل [القصر الملكيّ] والقيام بتحصين الأطراف الشماليّة لباريس وعدم تصديق البروسيين الخونة الغادرين. وانتقد الكومونة لعدم تأميم بنك باريس، بيد أنه فضح افتراءات المناهضين لنشاط الكومونة. لكنْ، للأسف، لم يُحتفظْ بالوثائق التي تشهد على طابع توصيات ماركس في جوابه لسيرايه وفرنكل.

تأثير الأمميّة الأولى، والظرف السياسيّ، ومطالبُ الجماهير البروليتاريّة المباشرة، جعلت البرودونيين يطرحون جانبًا مشاريعَ أستاذهم البورجوازيّةَ الصغيرة؛ ولذلك تناقضت التدابيرُ الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة التي أخذوا بها مع تعاليم

أدّت ضرباتُ البورجوازيّة الرجعيّة إلى مقتل الكومونة

برودون. وقد كتب أنجلز قائلاً إنه «على الرغم من أنّ البرودونيين كانوا ممثّلين بقوةٍ في الكومونة، فإنهم لم يقوموا بأقلّ محاولة، على أساس مشاريع برودون، من أجل تصفية المجتمع القديم وتنظيم القوى الاقتصاديّة. على العكس؛ فالشرف الكبير للكومونة وروحها الحيّة وكلّ التدابير الاقتصاديّة لم تشكل أيّ مبدأ، بل...مجرّد متوجّبات عمليّة.»

لكنّ هذه التدابير لا تتوافق كليّاً مع روحيّة برودون، وإنّما مع روحيّة الاشتراكيّة العلميّة الألمانيّة.[1] فكما هو معروف فإنّ برودون طالب بتنظيم التبادل، والصحفيّ باسدويه قدّم مشروع إنشاء بنكٍ للكومونة. غير أنّ البرودونيين دافعوا عمليّاً عن وجود النظام المصرفيّ وامتنعوا عن مصادرة بنك فرنسا، الأمرُ الذي شكل أحدَ أهمّ أسباب مقتل الكومونة كما أنّ برودون كان سلبيّاً تجاه الفبارك، وأبدى اهتمامًا خاصّاً بالإنتاج الضخم... لكنّ الكومونة رفضتْ أطروحة برودون عن ضرر تدخّل الدولة في الحياة الاقتصاديّة، وتمنّعت عن المعادلة في أجور المعمل؛ ففي وضع المكوس عليها أخذ بعين الاعتبار مواصفات العامل. كما وضع برودون مشروعًا لشراء الشقق من المالكين، في حين أنّ الكومونة تقدّمتْ بمصادرة مساكن ملاّك الأرض.

المغزى التاريخيّ لكومونة باريس

أدّت ضرباتُ البورجوازيّة الرجعيّة إلى مقتل الكومونة على أنّ نهايتها المأسويّة لا تبرّر عدمَ الحديث عن الأهميّة التاريخيّة لأعمال الكومونيين البطوليّة. فلقد برهنت الكومونة على الأهميّة التاريخيّة العالميّة للبروليتاريا، وقدّمت التجربةَ الأولى لديكتاتوريّتها، وكان تحطيمُ الدولة البورجوازيّة أكبرَ منجزاتها، وأرست في ظروفٍ غايةٍ في الصعوبة أسسَ دولةٍ جديدةٍ من نوعٍ بروليتاريّ، وظهر إلى الوجود نظامٌ جديدٌ للديمقراطيّة البروليتاريّة يرفض ديكتاتوريّةَ البورجوازيّة المقنّعة بالنظام البرلمانيّ. وطُرح تحدّي النظام البورجوازيّ، فقد ذهب الكومونيّون أبعدَ من الشارتيين[2] في الصراع مع الرِّقّ المأجور،

١ ـ **المجموعة الكاملة لكارل ماركس وفردريك انجلز**، الجزء XV، الصفحة ٥٩

٢ ـ الشارتيون نسبة إلى الشارتيّة، وهي حركة إصلاحيّة عصفتْ بالحياة السياسيّة في بريطانيا العظمى حين كانت التغيّرات الصناعيّة أوائل القرن التاسع عشر تولّد التعاسة والشقاء وتستمدّ هذه الحركة اسمها من «وثيقة الشعب» (Charte du people) المنشورة في ١٨٣٨/٥/٨ وكانت تطالب بالانتخاب العامّ والسرّيّ وتوزيع أعدل للمقاطعات الانتخابيّة إلى جانب أمور أخرى لكنّ نقص الانسجام في هذه الحركة لم يسمح لها بأن تقف في وجه القمع البوليسيّ فانهارت في العام ١٨٤٨ ومع ذلك فالحركة الشارتيّة أثّرتْ في كلّ الحياة السياسيّة في أوروبا القرن التاسع عشر بالتهديد الثوريّ الذي أفرزته.

واتّضحتْ للعيان ضرورةُ المصادرة الحاسمة لأملاك البورجوازيّة، وتنظيمُ الإنتاج الضخم، وتأسيسُ الحزب البروليتاريّ الوثيق الارتباط بالجماهير. ولقد برهنت التجربةُ المريرة لكومونة باريس على صحّة النظريّة الماركسيّة ودروسها العبقريّة، وأفلست الأفكارُ البلانكيّةُ عن أفضليّة طرق الصراع التآمريّة والدور المقرِّر «للأقليّة الثوريّة،» وظهر بوضوح عدمُ صحّة أوهام البرودونيين البورجوازيّة الصغيرة. كما انهارت المخطّطاتُ الفوضويّة «للثورة الاجتماعيّة» حين لا تأخذ في الاعتبار شكلاً من أشكال الدولة. باكونين وكروبوتكين وغيرُهما حاولوا شدَّ أزر النظريّة الفوضويّة بالرجوع إلى تجربة الكومونة، لائمين الكومونيين لعدم القطع الكافي مع «مبدإ الدولة»؛ لكنّ السبب الرئيس والمقرِّر في الواقع لمقتل الكومونة كان عدمَ صيرورتها ديكتاتوريّةً بما فيه الكفاية، وعدمَ قيامها مباشرةً بمصادرة أملاك البورجوازيّة، واتخاذَها موقفًا دفاعيًا. وبرهنتْ تجربة الكومونة أنّ وحدة الطبقة العاملة مع الفلاحين تشكّل الشرط الأساسَ لانتصار الثورة الاشتراكيّة.

من الناحية النظريّة واضحٌ كلَّ الوضوح عدمُ نضج كومونة باريس. لكنّ التجربة الأولى لديكتاتوريّة البروليتاريا كان لها مغزًى تاريخيّ عالميّ وكبير جدّاً، وقد اكتُشف وتوضّح في أعمال ماركس وأنجلز ولينين. ففي ١٨٧١/٤/٢ كتب ماركس إلى كوغلمان مشيدًا ببطولات الكومونيين قائلاً: «يا لها من مرونة، يا لها من مبادرةٍ تاريخيّة، ويا لها من مقدرةٍ على التضحية بالذات لدى هؤلاء الباريسيين!» وبعد مرور خمسة أيام كتب له قائلاً: «إنّ صراع الطبقة العاملة مع طبقة الرأسماليين، ومع الدولة التي تمثّل مصالحهم، دخل، بفضل كومونة باريس، مرحلةً جديدة. وكيفما انتهت الحالُ هذه المرة، فقد حصل كسبٌ مخرجٍ جديدٍ ذو أهميّة تاريخيّة عالميّة.»

في ١٨٧١/٥/٣٠، قرأ ماركس أمام المجلس العامّ للأمميّة الأولى بيانَه، الذي قدّم تثمينًا قصيرًا إنّما عميقًا لجوهر كومونة باريس التاريخيّ وفي ١٨٧١/٩/٢٦ ألقى في كونفرانس الأمميّة الأولى في لندن خطابًا قال فيه إنّ الكومونة «كانت الاستيلاء على السلطة السياسيّة من قِبل الطبقة العاملة» بالرغم من أنها «لم تتمكّن من الاحتفاظ بها وتثبيتها.» وإذ عمّم تجربةَ الكومونيين أكّد أنّه «ظهر في ديكتاتوريّة البروليتاريا الشرطُ الأوّل والضروريّ لها، ألا وهو وجودُ الجيش البروليتاريّ.»

وعندما طُرحتْ مسألةُ إصدار جديد لـ **البيان الشيوعيّ** ذُكرتْ في المقدّمة المكتوبة عام ١٨٧٢ ضرورةُ الأخذ بتصحيح مهمّ وحيد فقط، وهو أنّ تجربة الكومونة أثبتتْ أنّ «الطبقة العاملة ليس عليها مجرّدُ الاستيلاء على آلة الدولة الجاهزة ودفعِها إلى السير في مجرى أهدافها الخاصة،»[1] بل عليها تحطيمُها أيضًا.

على أنّ معالجة خصائص كومونة باريس قدّمها ماركس في كتابه عن **الحرب الأهليّة في فرنسا**، حين أشار إلى أنّ الكومونة كانت النقيضَ المباشرَ للإمبراطوريّة النابوليونيّة، وشكلاً معيّنًا من الجمهوريّة الاجتماعيّة، وأنها عبثًا عملتْ على بعث كومونة العصور الوسطى؛ فلقد قدّمتْ حكومةً رخيصة، وجسّدتْ بذلك «مثالَ كلّ الثورات البورجوازيّة » على أنّ سرّها يتلخّص في أنها «كانت في جوهرها حكومةَ الطبقة العاملة» المتأتّية عن الصراع بين الطبقات المنتِجة والطبقات المسيطرة ـ وهو شكل سياسيّ قائم منذ زمن، وكان يمكن فيه إنجازُ التحرّر الاقتصاديّ للعمل.» وإذ فضح ماركس ممتدحي الرِّقّ المأجور، فقد كتب بسخرية: «يقولون إنّ الكومونة تريد القضاءَ على الملكيّة، أساس كلّ الحضارة! نعم أيّها السادة الأعزّاء، الكومونة كانت تريد القضاءَ على هذه الملكية الطبقيّة، التي تحوّل عملَ العديدين إلى أغنياء قليلين. كانت تريد أن تصادر المصادِرين.» فلقد تطاول العمّالُ على امتيازات الإدارة، وهذه «كانت الثورة الأولى التي كانت الطبقةُ العاملة فيها... الوحيدة القادرة على الأخذ بالمبادرة الاجتماعيّة.» وأكّد ماركس أنّ الكومونة «كانت في الحقيقة ممثلاً لكلّ العناصر المعافاة في المجتمع الفرنسيّ؛ فكانت بالتالي الحكومةَ الوطنيّةَ بالفعل. فحكومة العمّال عملتْ من أجل تحرّر العمل، فغدت بذلك، في الوقت نفسه، عالميّةً بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى،» وحصلتْ على استجابة عمّال العالم أجمع.

ولاحظ ماركس فيما بعد «أنّ التدابير الاجتماعيّة الكبرى للكومونة تجسّدتْ في شخصها وفي أعمالها،» وتمكّنتْ بشكل عجيب من إعادة تنظيم باريس. ففي ظرف «الدراما التاريخيّة العالميّة، فإنّ العمّال والمفكّرين المناضلين، بدمهم الذي يسيل، والرابطين بالوعي الملهم مبادرتهم التاريخيّة، قد جعلوا باريس تنسى تقريبًا الناسَ الواقفين أمام جدرانها مضحّين بكلّ شيء من أجل بناء المجتمع الجديد» [المقصود الكومونيون الذين أعدمتهم حكومةُ تيير فيما بعد].

أما أنجلز فقد ثمّن عاليًا معنى بطولة كومونة باريس، فكتب في ١٨٩١/٣/١٨ في مقدّمة الطبعة الثالثة لعمل ماركس [**الحرب الأهليّة في فرنسا**] أنّ الكومونة تشكّلتْ تقريبًا من العمّال وحدهم أو مع أنصار الطبقة العاملة، ولذلك «فقرارُها تميّز بشكل مطلق بطابعه البروليتاريّ،» فغدت بذلك «مقبرةَ البرودونيين الاشتراكيّة» والبلانكيين أيضًا. وبقدر ما أخذ السيّد الألمانيّ مجدّدًا يشعر بالكره لسماع كلمتيْ «ديكتاتوريّة البروليتاريا،» أخذ إنجلز يتساءل بسخرية: «إذا كنتم تريدون أن تعرفوا أيّها السادةُ الأعزّاء ما هي ديكتاتوريّة البروليتاريا فانظروا إلى كومونة باريس؛ فلقد كانت بالفعل ديكتاتوريّةَ البروليتاريا.»[2]

---

١ ـ **بيان الحزب الشيوعيّ** (موسكو: إصدارات الدولة السياسيّة ١٩٣٨)، ص ١١

٢ ـ كارل ماركس، **الحرب الأهليّة في فرنسا** (موسكو: منشورات الدولة، ١٩٥١)، ص ١٧

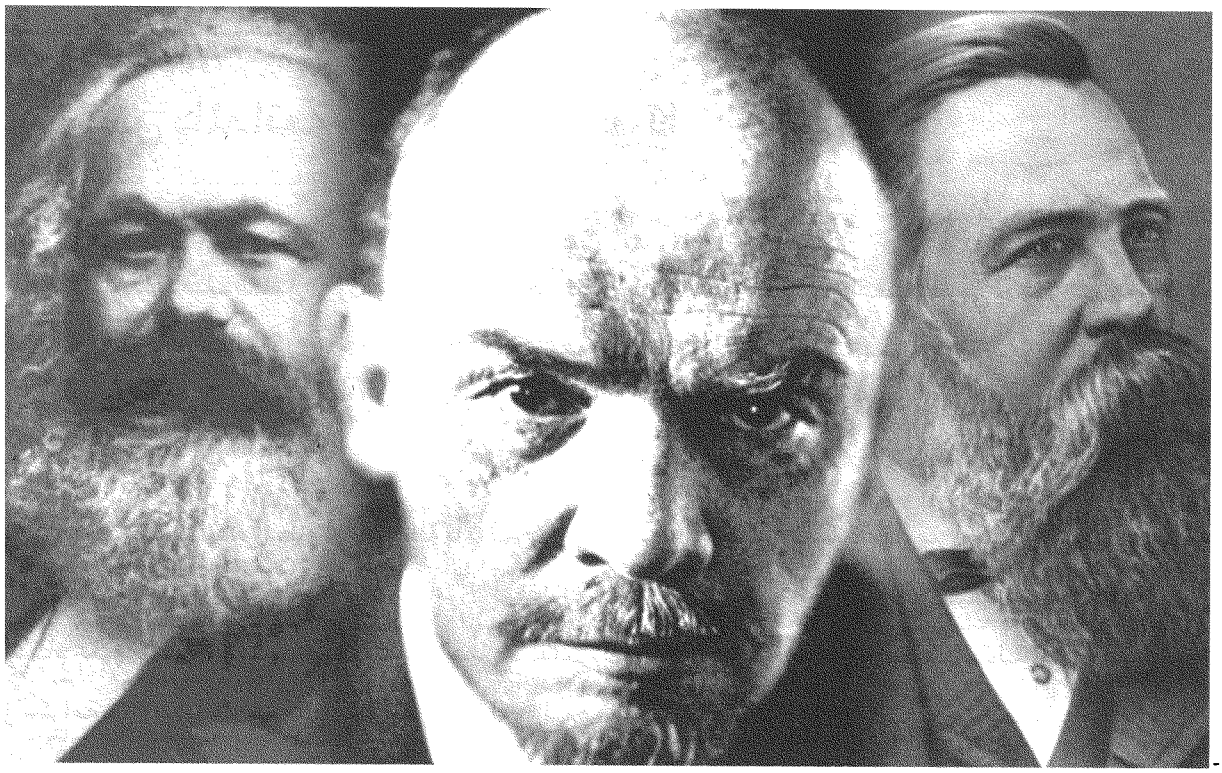

لينين بين أنجلز وماركس.

والتثمين العبقريّ للمعنى التاريخيّ لكومونة باريس قدّمه لينين أيضًا في ١٩٠٨/٣/١٨. فقد أعلن في اجتماع الأمميّة الأولى في جنيف أنّ الكومونة «هي النموذج الأعظم لحركة البروليتاريا العظمى في القرن التاسع عشر... لقد أجّجتْ في أوروبا الحركةَ الاشتراكيّة، وبرهنتْ على أهميّة قوّة الحرب الأهليّة، وشتّتت الأوهامَ الوطنيّة، وقضت على الاعتقاد الساذج في تطلّعات البورجوازيّة الوطنيّة العامّة، وعلّمت البروليتاريا الأوروبيّةَ، وبشكل ملموس، طرحَ مهمّة الثورة الاشتراكيّة.»[١] وفيما بعد، لاحظ لينين في مقالته «ذكرى الكومونة» (١٩١٧) أنها ظهرتْ بشكل فجائيّ، وأنّ الحركة أعطتها خاصيّةً غير محدَّدة وملتبسة. فقد التحق بها الوطنيون وقسمٌ من صغار التجّار والحرفيين، غير أنّ «العمال هم الذين تميّزوا حتى النهاية بإخلاصهم للكومونة» و«أصبحت السلطةُ بيد البروليتاريا.» لكنّ «البروليتاريا المستعبَدة من قِبل رأس المال الاقتصاديّ ليس بمقدورها السيطرة سياسيًا، في المجتمع المعاصر، ما لم تحطِّمْ قيودَها التي يعمل على تأبيدها رأسُ المال.» ولذلك «فحركة الكومونة كان من الضروريّ أن تكتسب التلوينَ الاشتراكيّ»[٢]

هذا، وفي السنوات الأولى للحرب العالميّة الأول، رجع لينين في معركته مع الشوفينيّة إلى تاريخ الكومونة.[٣] وعندما أخذتْ تنضج أحداثُ ثورة أكتوبر العظمى في روسيا، عاد مجدّدًا إلى تجربة الكومونة؛ ففي **رسائل من المنفى**، وفي **أطروحات نيسان**، طرح السؤالَ عن إقامة دولة عمّال من نوع كومونة باريس. وفي كتابه آنذاك، **الدولة والثورة**، قدّم تحليلاً عميقًا لهذه التجربة.

موسكو

١ ـ **المجموعة الكاملة**، الجزء ١٣، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩

٢ ـ الجزء ١٧، ص ١١٢

٣ ـ الجزء ٢١، ص ١٧